



الحمد لله الذي أنعم وأعطى وامتنح وكفى خلق الإنسان وعلمه البيان والصلاة والسلام على من أرسله الله هدى للناس ونورا مبينا خاتم النبيئين وإمام المرسلين والهادي إلى صراط الله المستقيم وعلى آله وأصحابه الأبرار ومن تبعهم بإحسان.

أيها السادة الأفاضل أيها المستمعون الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. لقد تفضلتم علينا بالحضور والاستماع والمشاركة في هذه الذكرى التاريخية ذكرى تكون مدينة العطف بعد ألف من السنين والتاريخ ذكرى وعبرة وليس حكاية وقصصا.

وإننا أيها السادة باستنطاق التاريخ واستحضار الأحداث وتذكرها إنما نقوم باستجلاء الحكمة وأخذ العبرة وإصلاح الخطأ من ذلك التاريخ ومن تلكم الأحداث الماضية وإذا لم يكن الرجوع على التاريخ وإقامة الذكرى لأجل هذا الهدف الأسمى وهذه الحكمة المبتغاة فلا كان التاريخ ولا كانت الذكرى.

اسمحوا لي أيها السادة - وقد تفضلتم بالاستماع إلي - أن أنتهز هذه الفرصة وأشارك في هذه الذكرى المحتفل بها بكلمة رأيت من الواجب أن أذكركم بها، وأن ألفت أنظاركم الكريمة إليها مادنا نستحضر التاريخ ونستنطق الأحداث ونستلهمها، هذه الكلمة رأيت أن أجعل موضوعها : «الحديث عن الميزابيين الإباضية والتهمة الخارجية الملصقة بهم منذ القديم».

ومن المؤسف له أن الكثير من المفكرين والكتاب لا زالوا إلى الآن يحلوا لهم أن يساندوا كتاب المقالات الأولين، والمؤرخين السياسيين القدامى. ولا يسمح لأنفسهم ولأقلامهم أن تتوقف قليلا وتتساءل ؛ هل الإباضية من الخوارج حقا؟ ومن هم الخوارج؟ وأين هؤلاء الخوارج الآن؟ أسئلة ربما تبدولكم غريبة إن طرحتها فبي ملتقاكم هذا، ولكن

الأغرب منها والأشد خطأ أن نبقى - ونحن في عصر التنوير، عصر الكتاب والكمبيوتر، وعصر الإمكانيات والوسائل الجبارة في الإعلام والكتابة - نبقى في هذا العصر نلوك أخطاء الأقدمين، ومغالطات السياسيين والحاكمين، ونكون أسارى التقليد الأعمى والتفكير المعوج غير المستقيم.

أيها السادة، كلمتي تشتمل على أربعة عناصر أتطرق إليها بالإيجاز والاختصار حتى أستطيع أن أصور لكم القضية وأجسم المشكل للعيان، ثم أستمع إليكم إن تفضلتم علي بالاستفسارات والملاحظات عسى أن نهتدي إلى ما فبه الصواب ونعطي للذكرى حقها من العبرة والاتعاظ، وهي هكذا :

* من هم الميزابيون الإباضية؟

* من هم الخوارج وماهي مبادئهم؟

* ما صلة الإباضية - والميزابيون منهم - بالخوارج؟ وهل حقا إنهم من الخوارج؟

* وأنهى كلمتي بمحور رابع يشمل بعض الوثائق التاريخية تدعم ما ذكرته وتحدثت عنه.

من هم الميزابيون؟

الميزابيون أو بنو مصاب أو امزاب، قوم أكثرهم من قبائل زناته ومن ينتمي إليها من فروع القبائل البربرية، سكنوا منطقة في شبكة من سلاسل جبال تسمى بجبال الشبكة، الواقعة جنوب الجزائر، بين الأغواط والمنيعة، قسم كبير منه ينتمي إلى المدرسة الإباضية من مدارس الفقه الإسلامي.

وسميت المنطقة باسم من ينتمون إليه : مزاب، أوامزاب، أو مصاب وكثيرا ما تبدل الصاد زايا والعكس، ومصاب اسم لبطن من بطون البربر، - بربر زناته - كما يقول ابن

خلدون في موسوعة التاريخية : " وكان بنوواسين هؤلاء ومن تشعب منهم مثل بني مرين وبني توجين وبني مصاب قد ملكوا القفر، وانزاحوا أمام صنهاجة إلى صحراء المغرب والمغرب الأوسط ما بين ملوية إلى أرض الزاب وما إليها من صحاري إفريقيا، إذ لم يكن للعرب في تلك الجهات كلها مذهب ولا مسلك إلى المائة الخامسة " إنتهى⁽¹⁾. يشير إلى دخول بني هلال شمال إفريقيا بعد القرن الرابع الهجري - القرن 10 ميلادي -.

وقال الأستاذ الشيخ عبد الرحمان محمد الجيلالي في كتابه " تاريخ الجزائر العام " نقلا عن ابن خلدون كذلك بتصريف : " بلاد مزاب ورسم اسمها بصورة صاد وسطها زاي كرسوم أهل المصحف لحروف الإشمام " الزراط " في قراءة خلف، فإن النطق بها متوسط بين الصاد والزاي، قال : وهواسم للقوم الذين اختطوا هذه البلاد ونزلوها، وبنومصاب من البربر وهم فخذ من بطن بادين بن محمد بن ولد زحيك بن وسين - من قبيل زناته - المتشعب على شعوب كثيرة منهم : بنو عبد الواد، وبنو مرين وبنو توجين وبنو مصاب وبنو زردال ، يجمعهم كلهم نسب بادين بن محمد، وفي محمد هذا يجتمع بادين وبنو راشد، وراشد هذا هو أخو بادين " إنتهى⁽²⁾.

وقال الشيخ مبارك الميلي بعد أن أورد كلام ابن خلدون المذكور من قبل : " وبنو عبد الواد الذين بمزاب من بني مطهر بن يمل بن يزقن بن القاسم، وفي مزاب أيضا أخلاط من لماية وصنهاجة " إنتهى⁽³⁾.

وفي مزاب أيضا من غير البربر قبائل عربية تنتمي إلى أصول من الحجاز أو اليمن كبني عدي، وبني علي، وبني علوان.

1 - تاريخ ابن خلدون ، سلسلة العلوم الإنسانية ، رقم : 14 ، ص 71 .

2 - تاريخ الجزائر العام ، ج 1 ، ص 177 طبعة دار الثقافة بيروت

3 - تاريخ الجزائر القديم و الحديث ، ج 2 ، ص 114 .

هذا ما يتعلق بالأصول العرقية والقبلية لبني مزاب أما ما يعود إلى الدين والمذهب فغالب المزابيين ينتمون إلى المدرسة الإباضية من الناحية الفقهية التي هي من جملة المدارس الفقهية العقدية الإسلامية الأولى، وهي مدرسة قديمة جدا، أمامها السياسي عبد الله بن إباض الذي كان حيا في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني.

والمذهب الإباضي كغالب المذاهب الإسلامية نشأ بالعراق وقد أصبح العراق في القرن الأول مركزا للتجمع وكان أكثر المناطق استقطابا للكثافة السكانية العربية التي تجمعت بعد الفتح في البصرة والكوفة، بالإضافة إلى أن العراق يضم عددا كبيرا من التابعين والقراء وكان العراق - إلى جانب ذلك - أكبر ميادين الفتن والحروب والثورات وكان يزرع بثقل المعرضة للسلطة الحاكمة ولجبروت بني أمية فنشأ عن ذلك صراع وخلاف عقدي فقهي وخلاف وصراع سياسي واجتماعي وكان الصراع الفكري يسير جنبا إلى جنب مع الصراع السياسي وكان على كل فريق أن يقيم الأدلة على صحة ما ذهب إليه.

والخلاف والاختلاف أيها السادة ليس أمرا غريبا بل هو قانون من قوانين الحياة وسنة من سنن الله في هذا الكون فلولا اختلاف وجهات النظر وطموحات الناس لظلت الحياة راكدة شبه ميتة، تسير على وثيرة واحدة. وهذا شأن البشر منذ عرف للإنسان تاريخ.

ولكن المشكل والداء العيأ الذي يحار العقل فيه هوما ينتج عن هذا التنافس والاختلاف من افتراق وتنازع وتنافر قاست البشرية ويلات ولا تزال⁽⁴⁾.

ولكن مع هذا نجد واقع الأمة الإسلامية - وإن تعددت فيها الفرق - ما تزال تحمل اسم الأمة، انطلاقا مما أودع الله في كتاب الإسلام - القرآن -، وفي دين الإسلام من ثوابت وعوامل تجمع المسلمين أكثر مما تفرقهم، وترأب صعدهم أكثر مما تشعبه وتوسعه. [إنما

4 - البعد الحضاري لعقيدة الإباضية ، د. فرحات الجعبري ، ص 27

المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون [الحجرات 10.] وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون [المؤمنون 52.

من هم الخوارج وما هي مبادئهم؟

ولكي نتصور من هم الخوارج؟ وهل الإباضية منهم؟ لابد من الرجوع إلى مناقشة تسمية الفرق في تلك العهود التي جاءت بعد الفتنة الكبرى عند اختلاف الصحابة رضوان الله عليهم.

تجمع كتب المقالات والتعرض للملل والنحل أن جميع الفرق الإسلامية ترجع إلى اتجاهات ثلاثة أطلقت عليها هذه التسميات : أهل السنة، الشيعة، المحكمة.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه التقسيم للإمامة الإسلامية جاء يعكس أحداث الفتنة الكبرى بمقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه 35هـ / 656م، وما يزال المسلمون إلى يومنا هذا ينتفسون ما تصاعد منها من دخان.

وهذه أهم مراحل هذه الفتنة : مقتل عثمان 35 هـ / 656 م، مبايعة علي رضي الله عنه 35 هـ / 656 م، معركة الجمل 36 هـ / 657 م، معركة صفين 37 هـ / 658 م. لقد أسفرت هذه المعركة الأخيرة عن انقسام الأمة إلى ثلاث كتل :

* كتلة علي بن أبي طالب.

* كتلة معاوية بن أبي سفيان بن أمية.

* كتلة المحكمة التي رفضت التحكيم.

إن موازين القوى ودولاب الحكم استقرت لذا الأمويين لذلك صاروا الممثل الرسمي للإسلام، فهم حينئذ أهل سنة، ولا يخفى ما في هذه التسمية من استهواء للعامة والخاصة. وإذا علمنا ان جل ما وصلت غلينا كتاباتهم في الفقر ينتمون إلى هذا التيار

السني عندئذ يتبين لنا كيف ينبغي الاحتراز من مثل هذه الكتب التي كتبها أصحابها في ظل هذه الدول.

أما كتلة علي بن أبي طالب التي كانت في المنطلق مدافعة عن حق علي عليه السلام في الخلافة ن لقد رميت بالعلوية ثم بالشيعة وواضح ما في كلمة التشيع من روح التعصب للأشخاص الذي جاء الإسلام ضده مهما كان ذلك الشخص.

أما كتلة المحكمة فلم يبقوا يسمونهم المحكمة بل صاروا خوارج ثم أهل الأهواء والبدع.

ولا شك أن هذه الكتلة أذاقت كتلة معاوية وكتلة الشيعة الأمرين لأن المنتمين إليها رفعوا شعارا يرجوا كل مسلم تحقيقه، وهو "إن إمامة المسلمين ليست مقصورة لا على القرشيين عامة كبني أمية ولا على آل البيت كعلي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب عليه السلام، وإنما الخلافة حق لكل من توفرت فيه شروطها".

ولما أن حجة المحكمة - أسميهم محكمة لأنهم لم يصيروا بعد خوارج - كانت من القوة بمكان فلا سبيل على محاربتها وإبعاد الأفكار عنها إلى سلاح ديني فتاك، ألا وهو تهمة الخروج من الدين أو أهل البدع والأهواء والضلال⁽⁵⁾.

ولست بهذا الكلام أريد أن أقف محاميا ومدفعا عن الخوارج إنما أريد أن أحلل الوضع وأبين أساليب السياسة وأسلحتها كيف أخذت مجراها.

وإذا لم يكن المقصود بتسمية الخوارج هو هذا بل كانت التسمية مجرد دلالة لغوية، لأنهم خرجوا عن أمر علي عليه السلام فسموا بالخوارج؟ أقول: إذا كان الأمر كذلك، فلم لم تسمى كتلة طلحة والزبير الذين خرجوا عن إجماع المسلمين على خلافة علي بالخوارج،

⁵ - من أنهم يكفرون غيرهم ، أي يعتبرونهم أذنبا ذنبا عظيما خارجين عن طاعة الله على حد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في حطبة له : " لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض "

وهم أول من خرج عنهم في وقعة الجمل؟ ولم لم تسمى كتلة معاوية وأنصاره بالخوارج مع أن معاوية خرج عن إجماع المهاجرين والأنصار؟

وهذه الكتلة لم تكن تسمى في أول أمرها وإنما كانوا يسمونهم المحكمة، وأهل حروراء - اسم قرية انزاحوا إليها -، وهم والقراء والقعدة كتلة واحدة، إلى أن القراء والقعدة اعتلوا السياسة والصراع المسلح، هذا ما كان في أول أمرهم.

وكان من جملتهم قائد مشهور بقوة الشكيمة والتطرف، وكان فقيها من فقهاء يروي عن ابن عباس كثيرا، يسمى نافع بن الأزرق، طلع على الأمة بأفكار غريبة متطرفة قابل بها الضغط وتصعيد الصراع الذي قام به بنو أمية ضد من يخالفهم أيام تولي عبيد الله بن زياد ومن جاء بعده أمر العراق إلى الحجاج بن يوسف، وذلك في النصف الثاني من القرن الأول للهجرة.

انتهج نافع بن الأزرق ومن جاء بعده في سلوكه السياسي المعاملة بالمثل وسياسة «الغاية تبرر الوسيلة».

يقول الدكتور الجعبي في كتابه «البعث الحضاري»: «وما إن سعد عبيد الله بن زياد العنف حتى ظهرت في صفوف المحكمة حركة تدعو إلى التخلي عن الإنكار القولي إلى استعمال العنف وردّ القوة بما هو أشدّ منها، يتزعمها نافع بن الأزرق بن قيس البكري المتوفّي سنة 66 هـ»⁽⁶⁾.

وبهذا انقسمت المحكمة إلى حركتين متعارضتين، حركة ترى: لا نجاة في المعارضة للسلطة الغاشمة إلاّ بالقعود والتخلي عن استعمال القوة والتركيز على حركة ثقافية، محورها حفظ تعاليم الإسلام والدعوة إلى التزامها وهذه هي حركة الإباضية ومن معهم.

⁶ - البعث الحضاري للدكتور فرحات الجعبي

وحركة نافع بن الأزرق ومن والاه الذين يرون أن لا مفرّ من معارضة السلطة إلاّ بالقوة وحملها على التخلّي عن أمر الإسلام والمسلمين بالمجابهة، وتبنّت -فيما تذكر المصادر- مبدأ ردّ القوّة بالقوّة اعتماداً على الأسس الآتية:

* اعتبار دار المخالفين لهم دار شرك، يعاملونهم معاملة المشركين: أخذ أموالهم وسبي ذريّتهم.

* إقرار مبدأ الاستعراض، أي قتل كلّ من يعترضهم ممّن يخالفهم في الرأي، بما في ذلك الأطفال والنساء والعجزة والقعدة أيضاً " من ليس معي فهو عدوّي ".

* ضرورة الخروج إلى معسكرهم أي دار الإسلام حسب زعمهم والهجرة إليهم.

* تحريم القعود عن الحرب، واعتبار القعود عن ذلك شركاً.

إنّها مبادئ مرعبة والله، الإسلام والمسلمون بريئين منها، إن صحّت هذه المبادئ عنهم فإنّها الضلال بعينه.

وقال البغدادي في كتابه بعد ذكر من خرج عن عليّ ومعاوية من المحكّمة الأولى: «فهؤلاء هم الذين خرجوا من المحكّمة، ولم يحدثوا مذهباً غير ما حكيناه،⁽⁷⁾» انتهى.

يفهم من كلامه أنّ تسمية الخوارج كانت بعد ظهور نافع بن الأزرق ولوأنّه لم يصرّح بذلك.

ما صلة الإباضية (والمزابيون منهم) بالخوارج؟ وهل حقاً إنهم من الخوارج؟

بعد هذه الخطوات السريعة من الحديث عن الفرق، وعن منشأ الخوارج يتحصّل لدينا ما يلي:

7 - البغدادي، الفرق بين الفرق، ص 62

* الخوارج فرقة متطرّفة جدًّا، جاءت بمبادئ يأبها الشرع ولا يقوّها الإسلام - إن صحّت عنهم تلك المبادئ -.

* إن الإباضية ليست من هذه الفرقة الضّالة - كما تسمّى -، بل هم من المحكّمة الأولى، وليست فرقة من فرق الخوارج كما يحلّولكثير من الكتّاب. والخوارج هم أتباع نافع بن الأزرق ومن سايره، أعني: الخوارج هم من جاء بتلك المبادئ وآمنوا بها وعملوا بها.

* إن الإباضية أنفسهم يتبرّءون من الخوارج ويخالفونهم وينكرون عليهم مبادئهم الهدّامة قديما وحديثا.

* ليست بين الإباضية والخوارج علاقة ولا صلة إلاّ مبدأ واحد جمعهم، وهو مبدأ شديد كما يقول الشيخ أبو زهرة في كتابه "الفرق الإسلامية": "وليس لنا في الوقت الحاضر إلاّ أن نقرّه ونعمل له وهو: أن الخليفة أو إمام المسلمين لا يكون إلاّ بانتخاب حرّ صحيح يقوم به المسلمون لا فريق منهم، ويستمر خليفة ما دام قائما بالعدل مقيما للشرع مبتعدا عن الخطأ والزّيغ، فإن جار وجب عزله أو قتله". انتهى⁽⁸⁾

إن تسمية الخوارج ليس المقصود منها من خرج عن حاكم أو أمير، إنما المقصود منها من خرج عمّا يؤمن به المسلمون ويدعو إليه الشرع. فلا يليق أبدا بالمسلمين مهما كانت مذاهبهم أن يرموا بها من اختلف معهم في رأي أو اجتهاد، ولا سيّما ونحن في عصر أشدّ ما نكون فيه إلى الوحدة والتقارب والتسامح.

بعض الوثائق التاريخية :

أنتقل بعد هذا الحديث إلى المحور الأخير في كلمتنا هذه. فنستعرض بعض النصوص والوثائق التاريخية تأييدا لما ذكرناه، ودعما لمقوماتنا في الموضوع.

⁸ - أبو زهرة، الفرق الإسلامية

* الوثائق التاريخية تثبت أن الإباضية انفصلت عن رئيس فرقة الخوارج وتبرأت منهم بمجرد أن أظهر تلك المبادئ التي تدعو صراحة إلى معاقبة البريء بالمجرم واستعراض الناس للقتل حتى من لا يشارك في الحرب، واعتبار من خالفهم مشركا يحلّ قتله وأخذ ماله وسبي أطفاله.

* فهذا الشيخ أبويعقوب يوسف بن إبراهيم الورجلاني المتوفى سنة 570هـ/ 1175م يقول في كتابه " الدليل والبرهان " : " وزلة الخوارج: نافع بن الأزرق وذويه حين تأولوا قول الله ﷻ { وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ } الأنعام 121. فأثبتوا الشرك لأهل التوحيد، وأستحلوا الدماء والفروج " (9)

* وقال الدكتور فرحات الجعبيري من علماء تونس في كتابه " البعد الحضاري للعقيدة الإباضية " نقلا عن البرادي والبغثوري من علماء القرن السادس الهجري " 12 م " في كتابه " سير نفوسة " : " وذلك أن المسلمين بين (يعني المحكّمة) بعد قتل أبي بلال اجتمعوا بجامع البصرة وعزموا على الخروج، وفيهم عبد الله بن إباح ونافع ابن الأزرق ووجه المسلمين. فلما جن الليل سمع عبد الله بن إباح دويّ القراء وترنين المؤذنين وحنين المسبّحين، فقال لأصحابه: أعن هؤلاء أخرج معهم؟ والله لا يكون هذا. فرجع وكنتم أمره " انتهى (10)

* وفي مكاتبة جرت بين الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان وعبد الله بن إباح إمام فرقة الإباضية يشرح لعبد الملك موقف الإباضية من الخوارج، وقد أوردها الشيخ إبراهيم البرادي في كتابه " الجواهر " نورد منها ما يلي: " وكتبت إليّ تحدّثني الغلوفي الدّين أعوذ بالله من الغلوّ، وسأبيّن لك الغلوّ إذا جهلته. الغلوفي الدّين أن يقال على الله غير الحقّ، ويعمل بغير كتاب الله الذي بيّن، وسنة نبيّه التي سنّ... "، ثمّ يقول: " إنّنا

9 - أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الورجلاني ، الدليل و البرهان ، ج1 ، ص15

10 - مقرين بن محمد البغثوري ، سير نفوسة (مخطوط) ، عن السير ، ص548

براء إلى الله من ابن الأزرق وصنيعه وأتباعه، لقد كان حين خرج على الإسلام فيما ظهر لنا، ولكنه أحدث وارتدّ وكفر بعد إسلامه، فنبهنا إلى الله منهم".⁽¹¹⁾

* وقال الشيخ رشيد رضا تعليقا على شرح رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده عندما قال الشيخ: " وغلا الخوارج فكفروا من عداهم،...وبقيت منهم بقية في أطراف إفريقيا وناحية من جزيرة العرب "، يعلق الشيخ رشيد رضا قائلا: " إنه يعني بهذه البقية الإباضية، ولكن الإباضية يتبرءون من الخوارج الذين يكفرون من يخالفهم كالصّفية والأزارقة".⁽¹²⁾

* ويورد الشيخ الشماخي في كتابه " سير المشائخ "، يورد حادثة وقعت لأحد أعيان الإباضية من المحكمة الأولى يقال له عنبسة بن الوليد " تجمع لديه مال وخيل وسلاح ونحو أربعة وعشرين ألف درهم جمعها برسم الجهاد والخروج عن الظلمة وطغاة بني أمية. فلما أحدث ابن الأزرق ما تبرأ منه المسلمون وفارقوه تخرّج من ذلك المال أين يضعه؟ فما زال يسأل المشائخ حتى تقدم إليه من قدّم له إثباتا أنه استأذن منه ابن الأزرق مالا فلم يرده إليه. فدفع إليه ذلك المال في مقابل دينه".⁽¹³⁾ أمثال هؤلاء يقال لهم خوارج يستحلّون مال المسلمين؟

* وقال صاحب " عقيدة التوحيد"⁽¹⁴⁾ المعروفة بعقيدة العزابة: " وليس منّا من قال: إنّ جميع من يحلّ دمه يحلّ ماله، ولا من قال: إنّ الهجرة باقية بعد فتح مكة، ولا من قال: إن علم الديانة يدرك بغير التعلم له ". يعني بالمقطع الأوّل والثاني الخوارج الذين

11 - إبراهيم البرادي ، الجواهر المنتقاة ، ص164

12 - رسالة التوحيد ، ص12 ، تعليق 1، ط. دار المنار

13 - أبو العباس أحمد بن سعيد الشماخي ، سير المشائخ ، ص79

14 - مؤلف قديم يرجع إلى القرن الثالث الهجري (القرن 9 م) قبل انتشار العربية في شمال إفريقيا ، كتبها صاحبها بالبربرية ثم نقلها الشيخ عمرو بن جميع إلى العربية

يستحلون دماء وأموال المسلمين ويوجبون على أتباعهم الهجرة إلى حيث مناطقهم لاعتبار وطن من يخالفهم وطن حرب يعامل أهله معاملة المشركين.

* وقال في نفس الكتاب عندما تعرض لحكم قتال البغاة والظلمة وقطاع الطرق من أهل التوحيد : " أما سلاح البغاة فيرد إليهم، وقيل يذفن، وقيل يباع ويتصدق به على الفقراء الذين شهدوا القتال " انتهى. هذا سلاحهم لا يحل لنا تملكه بعد أن يأخذوا منهم بل يتصدق به على الفقراء، فما بالك ببقية أموالهم.

* ويقول الدكتور عبد العزيز سالم صاحب كتاب " تاريخ المغرب الكبير " : " إن الدكتور حسين مؤنس يشك فيما ينسب على الإباضية والصفيرية من القسوة مع أنهما لم يكونوا حربا على الخلافة الإسلامية في المشرق، ربما يعود ذلك إلى أسباب سياسية... فالمذهب الإباضي يتفق في كثير من أصوله وفروعه مع مذاهب أهل السنة، وهو أقرب إلى أهل السنة من بقية المذاهب الأخرى " (15).

* ويقول الشيخ علي يحي معمر في كتابه " الإباضية في موكب التاريخ " : " والإباضية حسب أصولهم العلمية وحسب تعاملهم مع بقية المسلمين ممن خالفهم، وحسب السيرة الواقعية التي سجلها لهم التاريخ في مختلف العصور يعتبرون أبعد الفرق الإسلامية جميعا عن الخوارج " (16).

* وبترجم الشماخي في كتابه الهام " سير المشائخ لتابعي من التابعين الشيخ أبو محمد النهدي " خرج غازيا في سبيل الله فنظر إلى أفعال الناس في القتال من الغلول و الجور الظلم فأنكر ذلك وقال : ليس هذا من فعل أولياء الله وأهل الإيمان. ونظر إلى صلاتهم وقيامهم بتوحيد فقال : ما هذا بفعل المشركين " (17).

15 - د. عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب الكبير ، ج 2 ، ص 302

16 - علي يحي معمر ، الإباضية في موكب التاريخ ، ج 1 ، ص 38

17 - الشماخي ، سير المشائخ ، ص 97

* ويذكر الدكتور المعاصر والمنصف عوض خليفات المحاضر في جامعة الأردن في كتابه القيم " الأصول التاريخية للفرقة الإباضية " في آخر الكتاب، بعد أن تحدث عن موقف الإباضية من أحداث الفتنة وبروز الإنقسامات بين المسلمين : " ويمكن للباحث المطلع على ما كتب عن الأحداث أن يسجل الملاحظات التالية حول بعض الأمور التي لا تزال محل نقاش وجدل بين الباحثين المفكرين :

- إن الإباضيين ليسوا خوارج كما تزعم بعض كتب المقالات والملل والنحل، كما يدعي بعض الكتاب المحدثين الذين قلدوا هذه المؤلفات دون تدقيق وتمحيص، والواقع أن الإباضية لا يجمعهم بالخوارج سوى إنكار التحكيم.

- إن الإباضية حرموا قتل الموحدين واستحلال دمائهم وحرمووا استعراض الناس وامتحانهم كما فعل متطرفو الخوارج مثل الأزارقة والنجدية " (18).

* ويذكر الشيخ الدرجيني في طبقاته : " يقال عن الشيخ عبد السلام بن منصور المزاتي أنه اشترى بإفريقيا (المراد بها القيروان وتونس).

* خرفانا من السوق فلما جاء بائعها ليقبض الثمن قال له : أر، ومعنى هذه الكلمة بلغة صنهاجة : هات، فغلب على ظنه أنه صنهاجي، فدفع له ثمن الخرفان ثم تصدق بها ولم يجز لنفسه اقتناء غنم فيه ريبة " (19).

وكتب محقق الكتاب على هذه القصة مايلي :

" مما يذكره المؤرخون أن قبائل الصنهاجية لا يتورعون عن مصادرة الأموال ونهبها، وسلب ما يرونه يستحق ذلك عن حق أو باطل "، انتهى.

وهذه القصة تذكرني بما جرى به العمل عندنا هنا في ميزاب في القديم،

18 - د. عوض خليفات، الأصول التاريخية للفرقة الإباضية، ص53

19 - الدرجيني طبقات المشائخ بلغرب، ج2، ص408

عندما تقع فتن وغارات بين أهل البادية والقبائل والضاربة فيها من الذين يسوقون منتوجهم في أسواق مدن مزاب.

عندما تقع الفتنة بين تلك القبائل ويتحققون منها تعلن العزابة في المساجد ذلك، وتحذر الناس من اقتناء أو شراء ما تاتي به تلك القبائل لمدة طويلة خوفا أن يكون مغصوبا أو مسروقا جلب لأسواقهم لبيعهم. هل الخوارج تفعل هذا؟

لقد أتاحت الفرصة للإباضية أن يقيموا حكما ودولة على ما يروونه صوابا وعلى حسب اجتهاد علمائهم. كلن ذلك في المشرق في عمان وحتى في مكة والمدينة المنورة في عهد أبي حمزة المختار بن عوف سنة 126 هـ / 745 هـ. وفي طرابلس الغرب، وفي جربة، وفي الجزائر في تيهرت، ولم تسجل لهم كتب التاريخ أنهم تعرضوا لقتل الناس والإفساد في الأرض وسبي الأموال وتشريد وقتل النساء والأطفال. فلوكان الإباضية يدينون بما تدين به الخوارج لظهر ذلك في تصرفاتهم وأفعالهم خاصة في وقت الحرب وقساوة المعارك. " وعقائد الرجال تظهر عند الشدائد والظروف القاسية "

ولولا خوف الإطالة لأوردت نصوصا عما يذكر عنه المؤرخون عندما ينتصرون في معركة أو يظفرون بالسيادة في جهة من الجهات، من تصرفات تدل على العقيدة الثابتة وعلى التحكم فيمن معهم وعلى محاسبة أنفسهم خوفا من الله واحتراما للإسلام.

ارجعوا إلى ما كتب عنه أخرج القاضي يحيى طالب للحق عامل بني أمية على اليمن، وعندما كون أبو الخطاب عبد الأعلى إمامة الإباضية في طرابلس الغرب وأخرج عامل بني أمية منها، وعندما تغلب عبد الرحمان بن رستم عمل أبي الخطاب على الثائر عبد الرحمان بن حبيب في القيروان، وعشرات من المواقف مثلها.

هذا أبو يزيد صاحب الحمار أصله من الإباضية، خالف مبادئ الإباضية الذين يتقيدون بالمبادئ الإسلامية لا بما تمليه السياسية ويوجبه الظروف في حروبهم. خالفهم في

خروجه على الفاطميين، وقام ضدهم في الجزائر وتونس، وحاصر المهديّة طويلا وقام بأعمال شنيعة، وهو صاحب مبدأ " لا توجد امرأة حرة في إفريقيا " وقيل له أثناء تلك الحروب : " أتظن أن الإباضية خرجوا معك يقتسمون معك هذه الجيفة؟ بل هم في مساجدهم معتزلين ". فقال لهم : " نعم، أعلم ذلك، عندما ننتهي من نسج الكساء نشتغل بفليه ".

أيها السادة، بعد إيراد بعض هذه النصوص القولية والعملية لا يسعني أن أخطب ضمائرکم وأطلب منكم أن تعودوا إلى ذات أنفسکم فتسألوها سؤال إنصاف وعدل : هل بنومزب والإباضية عامة من الخوارج؟ هل تجدون يفي تعاملهم مع بقية المسلمين ما يدل على تلك المبادئ الهدامة المخيفة التي جاء بها الخوارج وأقام عليهم علماء المسلمين ضجة كبيرة واستنكار شديد؟

أليس من الظلم أن تبهت شخصا - ولو أنك لا تعتبره أخا لك - وأن تكذب عليه ظلما وتجنيا؟

أليس من عدم الفهم ومن التزوير للتاريخ أن نصف الإباضية بالخوارج لأن القدماء وكتاب المقالات من أتباع الملوك والأمراء لم يتورعوا ولم يضبطوا أقلامهم فأدخلوهم في زمرة الخوارج عندما يتحدثون عن الخوارج إما جهلا وغفلة، وإما تعمدا وتزلفا للسلطان.

وتهمة الخارجية تحملها البغدادي والشهرستاني وغيرهما من الناقلين عنهما فأصبحت كأنها حقيقة علمية لا تقبل الشك، يتلقفها بارتياح وبنهم وعن عمد - وهو الغالب - أو عن جهل كل من تصدى ليقول شيئا عن بني مزب أو عن الإباضية.

ومن المضحك المبكي أن لا يكتفوا بهذه التهمة التي ربما لا تخلبوا من ملابسات فيطلقون لأقلامهم العنان ولخيالهم التصورات، يصفون الإباضية بما شاءوا من قول إلى درجة أن يتهموا علماءهم بالكذب وبأنهم يخفون حقيقة أمرهم ولا يصرحون بما يؤمنون

به بدعوى جواز التقية، ثم ينسبون إليهم من الفرق المجهولة التي لا تعرف إلا باسمها وما تنعت به من البدع والأضاليل.

ربما تقولون لي : وما الحيلة؟ وماذا نفعل بأولئك الذين كتبوا ما كتبوا؟ أقول لكم : ابحثوا، غربلوا ما يقال ويكتب. تثبتوا من الحقائق وصرحوا بها، عاشروا هؤلاء الناس وخالطوهم لتعلموا أنهم يفعلون ما تفعل الخوارج أم لا؟

ليس العيب أن نخالف ما قيل وما كتب إذا كان ذلك حقا، إنما العيب الكبير أن نبقى مصرين على الخطأ جاهلين أو متجاهلين.

أيها السادة إن الخوارج ماتوا وانقطعوا منذ أن مات وانقطع ابن الأزرق وأتباعه في حروب طاحنة قام بها القائد المعروف المهلب بن أبي صفرة وأبناؤه. وأضيفوا إلى معلوماتكم أن المهلب هذا عماني ولا يبعد أن يكون إباضيا.

نعم، بقيت مبادئهم يثيرها بعض المغامرون من حين لآخر كصاحب الزنج في جنوب بغداد، والحشاشين في الجبل وغير هؤلاء. فأصبحت الخارجية والخوارج غولا يخوف بها الحكام الكوميين، ويضرب بها السياسيون خصومهم، ويتهم بها بعضهم بعضا، فنزهوا أفكاركم وأقلامكم عن إخوانكم في الدين والنسب. فالإسلام واحد والقرآن واحد والسنة النبوية نور وهداية للجميع، والاجتهاد مشروع. والمذاهب الفقهية دليل حضارة ورقى فكري بعيد المدى، وكلها تأخذ من القرآن والسنة والإجماع، ويجب أن تكون كلها متآزرة لا تستطيع الإباضية أن تنفي مذهبها ولا أهل السنة يستطيعون أن ينفوا مذهبها، أما القدح والتشهير وسوء الظن فلا.

اعملوا بقول الله ﷻ : {إنما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون} الحجرات 10.

ويقوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيارا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنازوا بالألقاب ببس الإثم الفسوق بعد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون } الحجرات 11.

اسمحوا لي أيها السادة ربما كانت لهجتي حادة أو شديدة آلمني العناد والفرقة، وأثارني الظلم والاستخفاف. غفر الله لي ولكم، وأثار بصيرتي وبصيرتكم وهدانا وإياكم لما فيه خير البلاد والعباد.

ملاحظة تكميلية :

إن اشتراك أفراد أو طوائف في رأي معين لا يعني اشتراك أولئك الأفراد أو تلك الطوائف في جميع الآراء واتفاقاتهم عليها، ومن الخطأ فهم هذه الملاحظة اليسيرة تسرب الوهم إلى أولئك الذين يزعمون أن الإباضية فرقة من الخوارج أو من غيرهم من الفرق الإسلامية الكثيرة فالإباضية ينتقدون قبول التحكيم ويروهن عليا مخطأ في الموافقة عليه ليس هذا الرأي مقصور على الإباضية ولا على الخوارج، وإنما كان رأي الكثير من الصحابة والتابعين. وتوافق آراء الإباضية والخوارج في هذه النقطة لا يجعل الإباضية خوارج كما لا يجعل الخوارج إباضية، ويشترك المعتزلة والأشاعرة في أصل تنزيله الباري فلا يجعل هذا الاشتراك في هذا الأصل كلا من المعتزلة والأشاعرة فرقة واحدة ويشترك بعض المعتزلة والشيعة في نظرية حصر الخلافة في البيت الهاشمي فهل يجعل هذا الاشتراك كلا من المعتزلة والشيعة فرقة واحدة؟

ويشترك الإباضية مع الخوارج في قضية الخلافة ومع المعتزلة في الصفات ومع الأشاعرة في القدر فهل يجعل هذا الاشتراك كلا من الإباضية والخوارج والمعتزلة والأشاعرة فرقة واحدة؟

نعم، إنها فرقة واحدة بالنظر إلى الأصل العام الذي يصدرون منه وهو الإسلام ولكن لا يمنع أن لكل فرقة من هذه الفرق ومن غيرها آراء تختص بها حسب فهمها للكتاب والسنة في إطار المبادئ الأساسية للإسلام.

أعتقد أن في هذه الملاحظة الجواب المقنع عن حيرة أولئك الذين يربطون العلائق بين الإباضية والخوارج كما أنه يكفي لإقناع أولئك الذين يريدون أن يجعلوا الإباضية فرقة متفرعة عن المعتزلة أو غيرها من المذاهب الإسلامية المتعددة.

المراجع / عناوين الكتب ومؤلفيها

- الإباضية في موكب التاريخ / علي يحي معمر.
- البعد الحضاري للعقيدة الإباضية / فرحات الحعبيري.
- تاريخ الجزائر العام / عبد الرحمان الجيلالي.
- تاريخ الجزائر في القديم والحديث / مبارك الميللي.
- الجواهر المنتقاة / إبراهيم البرادي.
- الدليل والبرهان / الوارجلاني.
- سير المشائخ / الشماخي.
- طبقات المشائخ بالمغرب / الدرجيني.
- العبر (كتاب) / ابن خلدون.
- عقيدة التوحيد / عمروبن جميع.
- الفرق بين الفرق / البغدادي.

- الكشف والبيان / القلهاتي.
- المذاهب الإسلامية / الشيخ أبوزهرة.
- الملل النحل / الشهر ستاني.
- ندوة الفقه الإسلامي بعمان / بعمان.